الروائيون الفرنسيون في القرن التاسع عشر: (١-٢)

من الواقعية الرومانسية إلى الواقعية الطبيعية

تشخيص قيم الواقع.. والبحث في دوافع المشكلات النفسية

أمطرت سماء الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر نجوماً كثيرة من الكتاب الذين جسدت رواياتهم التحولات الاجتماعية والسياسية والفلسفية التي حصلت آنذاك في فرنسا. وكانت سنوات القرن التاسع عشر قد شكلت «القرن الذهبي» في تاريخ الأدب الأوروبي وأصبحت الأعمال الروائية والقصصية والمسرحية لمشاهير الكتاب الفرنسيين ومن بينهم بالزاك، هيجو، فلوبير، زوليا وماباسان.. نموذجاً رائعاً للابداعات الأدبية والفكرية المختلفة. وفي مرحلة الثورة ١٧٨٩م وبعدها دخلت فرنسا دوامة من الفوضى وعدم الاستقرار وعلى خلفية ذلك حاول كتاب تلك المرحلة فهم وإدراك نقاط الضعف التي تعتري المرحلة الجديدة.

د.منصور القاضي

- القرائن الاجتماعية: هنالك عوامل كثيرة أثرت على تطور الأدب في ذلك العهد، حيث أن الثورة الصناعية كانت قد حددت مستوى الاصلاحات الاقتصادية بالاضافة الى مستوى التقدم التقني الذي أدى في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر الى التطور السريع في المدن كردة فعل للتطور الديناميكي للصناعة التي ساعدت آنذاك على ظهور فئات المستثمرين الجدد والموظفين أصحاب البنوك والسعادة وبما في ذلك «الوسطاء» وعمال المصانع والبرجوازية الصغيرة.

رافق ذلك التوترات السياسية والاجتماعية التي جاءت نتيجة للاحتكاكات بين تلك الفئات مما أدى الى بروز الطوفان الثوري خلال الأعوام «١٨٤٨و١٨٧١م»..

ومع مرور الوقت كسبت باريس شهرة عالية بين العواصم الأوروبية جراء تميزها بالتسلية واللهو وتعدد الفنون المتطورة..

فأصبحت اللغة الفرنسية لغة الدبلوماسية العالمية وتصدرت قائمة أهم اللغات الأجنبية التي يتحدث بها المثقفون ويتباهى بها أصحاب الفكر والمعرفة، لذلك برزت سيطرة الكُتاب الفرنسيين على مساحة واسعة من اهتمامات القراء بالمقارنة مع آداب الدول الأخرى.

كما كان لتطور خطوط السكك الحديدية أيضاً مساهمة فعالة في انتشار الكتب وتوزيعها طالما كان المسافرون يتسابقون على شراء الروايات التي تباع في الأكشاك بالمكتبة الموجودة في محطات القطارات وكان أيضاً للصحف اليومية والاسبوعية رخيصة الثمن أيضاً دور مميز وخصوصاً تلك التي كانت تنتشر في ثلاثينيات القرن التاسع عشر وكانت تنشر روايات مختصرة لمؤلفين مشهورين كان القراء يتابعونها وينتظرونها بفارغ الصبر.

أما الطبقة الوسطى «الناشئة- البرجوازية فقد ساعدت بشكل أو بآخر على زيادة الاهتمام بالأدب.

إن أهم الاتجاهات الأدبية التي ظهرت في القرن التاسع عشر جذبت تأييد واهتمام عدد كبير من مثقفي البلدان الأخرى، مثلت شيئاً ما وسطاً بين الواقعية والرومانسية، ومع نهاية القرن التاسع عشر، أصبح التيار الأكثر واقعية هو تيار الطبيعيين المتنوع من الواقعية الجديدة، كما أن كثيراً من المؤلفين الروائيين «الواقعية والطبيعية» في مؤلفاتهم..

ومع نهاية القرن اتسعت شهرة الاتجاه الراديكالي في الواقعية والمسماه «الطبيعية» وزاوج الكثير من الكتاب في مؤلفاتهم بين الاتجاهين.

السمو بالحب والتعفف

ستندال في التراث الأدبي اسم مستعار أما اسمه الحقيقي فهو آنري ماري بيليا «١٧٨٣- ١٨٤٢» وكان من أنصار الاتجاهين الواقعي والطبيعي ومن بين مؤلفاته الشهيرة « السيرة الذاتية، مذكرات على الطريق، شيء عن الموسيقى، فنون الرسم والسياسة وكذا الروايتين الأكثر شهرة في الأدب العالمي «أحمر وأسود» ١٨٣٠ و «سكان بارمسكايا» ١٨٣٩م أما رواية «اليوسن ليفين» التي لم يتمكن من اتمامها وطبعه فقط في العام ١٨٩٤م أي بعد نصف قرن من وفاة المؤلف.

عند تصويره للشخوص المتحركة في معظم محاور رواياته، ركز استندال على عبقرية وعزة النفس عند الشباب الذين يمتلكون روح اندفاعية تجعلهم أحياناً يدخلون بصراع مع المجتمع.

ستندال قضى سنوات كثيرة من عمره في ايطاليا وعند اقامته في هذا البلد لم يتظاهر بحبه العميق للحياة التي كانت تنقص المجتمع الفرنسي آنذاك، بل كان يشعر بالغبن.

وبقدر ماهي العلاقة الرومانسية بالحياة التي كانت مميزة عند كثيرين أبطال روايات استندال، الذين حاولوا الحفاظ على الشرف والكرامة في عالم متوحش مليء بالخيانة والتناقضات تظهر رومانسية المؤلف، ليس فقط على مستوى الشخصيات بل في روايته «أحمر وأسود» و «مشاهد من الحياة الباريسية».

ولعل أسلوب استخدام تكرار وتداخل الشخصيات الثانوية ضاعف من الخيالية في الملحمة، مع أن المخيلة الفنية عند بلزاك كانت متعددة وماهرة، عند تصويره للأبطال واظهار واقعية ظروف حياتهم ومحاكاتهم ضمن «المهزلة البشرية».

في مقدمته للملحمة كتب بلزاك «إن مهمة الكاتب بشكل أو بآخر تندرج ضمن مهام واختصاصات المختصين بعلم الحيوانات والمطلوب منه دراسة وشرح مملكة الوحوش»... البانوراما التي يعرضها علينا الكاتب مثلما هي في الأدب هي أيضاً ضمن العلاقات الانسانية التي يمكن مقارنتها مع الأبحاث العلمية التي تدرس حياة الحيوانات بشكل عام.

وبالنسبة للكتاب الرومانسيين الأوروبيين كانت الانتاجات الأدبية للكاتب الأسكتلندي «فولتير سكوت «١٧٧١- ١٨٣٢م»، مصدر إلهام للكثير منهم وكانت الطريقة التي استخدمها سكوت في إنتقاء أبطال رواياته، قد حملت تباشير واقعية للألفية القادمة ترتكز على خلفية رؤية المجتمع لعصره، فتسلح بذلك «فيكتور هوجو- ١٨٠٢ - ١٨٨٥م» و «اليكسندر ديوما الأب ١٨٠٢- ١٨٧٠م» اللذين حظيا بشهرة واسعة لدى القراء..

في روايته «كاتدرائيه العذراء الباريسية » ١٨٣١م صور هيجو باريس القرون الوسطى في ظل عالم تتجذر فيه المسيحية كعقيدة جامدة مسلّم بها وكذا طبيعة الحياة في هذا العالم بالنسبة لبسطاء الناس بما في ذلك المشوه الأحدب- قارع الجرس- أما الشيء المثير في هذه الرواية فهو مايتعلق بموضوع الحب الخالد، الذي تميز به ذلك العصر مما أكسب الرواية خلوداً عظيماً لدرجة أنها صيغت موسيقياً وتحولت الى وصل موسيقي مشهور تحت اسم «ثوتردام» ويستمتع به الكثيرون حتى اليوم..

أما أحداث رواية «البؤساء» ١٨٦٢م فقد دارت في العصر الذي عاشه الكاتب، وبها يقدم الشخصية الرئيسية «جان فلجان» الذي يحاول بكل ما يمتلك من أنفة وإرادة أن يعيش حياة كريمة وشريفة، خلافاً لما هو قائم في المجتمع من قيم مشوهة وتفكك أخلاقي، هنا يريد الكاتب أن يرسخ الإيمان بقدرة الإنسان على تحمل قساوة الحياة، والحفاظ على قيمه وخصوصياته التي يتميز بها..

وخلافاً للانحطاط والانزلال الحاصل تنتعش القيم الأخلاقية عند «فالجان» وهذه بذاتها مثلت صورة مجازية لحياة الإنسان الروحية وبغض النظر عن المغالاة والتقليد، بشكل عام هذه الرواية كغيرها من أعمال هيجو الأدبية، مشبعة بالواقع وبالأحاسيس الصادقة.

«جولين سوريل»، الذي حرم من كل شيء وتنتهي حياته بالاعدام شنقاً بتهمة ارتكابه جريمة قتل عشيقته.

وفي روايته الأخرى «سكان باراسكايا» «فاير يتشه ديك دونيجو»، يعيش بدون أمل ويتخبط بقصص حب كثيرة ويواجه المكائد- سياسية واجتماعية من قبل من يبحثون عن متخفي داخل الكنيسة، وبذلك يصل استندال الى أهمية الإيمان بالعقلانية مبيناً الاندفاعية المرتبطة بالأحداث السيئة التي واجهها أبطال روايته بكل إباء وهم يدعون التحلي بالثقافة والفطنة وببرودة حادة يبدون سخريتهم لكل ماهو معتاد في محيطهم الاجتماعي.

الرومانسية في الأدب

كان أحد أهم الرومانسيين الفرنسيين المتميزين «أونريه دي بلزاك - ١٧٩٩- ١٨٥٠» مثله مثل استندال، أغنى بلزاك كذلك رواياته بالمواقف الدرامية والشخصيات والأحداث المميزة للاتجاه الرومانسي في الأدب، إلا أن المؤلف هنا يصف وصفاً دقيقاً للعالم المحيط به - المدن، الشوارع، البيوت، الأثاث وحتى البدلات التي يرتديها شخوص أعماله الروائية، وكذلك سلوكياتهم والأخلاق الاجتماعية التي تحدد حياة كل منهم- وبأدق التفاصيل يثبت بلزاك قاعدة أو أسس مكتسبة لجيل الواقعية اللاحق في الأدب، بيد أنه صور حياة المجتمع الفرنسي تصويراً فنياً دقيقاً ولم يخف في هذا الجانب النقدي لمعظم جوانب الحياة السيئة في المجتمع، بما في ذلك الجشع والنزعة والوحشية والطمع والتهور في حب الحياة..

ملحمة «الهزل البشري» تعتبر من أهم أعمال بلزاك الكاملة والمكونة من ١٥٥ رواية وقصة كتبها خلال ٢٠ عاماً.

ملحمة «الهزل البشري» تتكون من جزئين رئيسيين «المسائل الأخلاقية» ، «والمسائل الفلسفية» كما أن الجزء الأول فيما بعد قسم الى قسمين «مشاهد من حياة خاصة»

عبث الكتابة

هدى الدُّغفق

● إذا أراد المبدع استمرار عطائه فلابد من إخضاع كتابته لتجارب متعددة- وإن تصور غيره أنها غير مجدية أو مؤثرة- فهي تبدو في غاية الأهمية والتأثير وإن لم يكن ذلك ملحوظاً أو محسوساً أو مدركاً بالقدر الكافي الذي يبعث القناعة في عقل من لم يقتنع بفاعلية ذلك وجداوه.

ولا تنتهي حاجة الذات المبدعة إلى تنشيط البنية الأولى لمحيط إبداعها وهو ماتقوم عليه الفكرة وتستقيم به أساليب الكتابة وتبدأ منه وتنتهي إليه تدريجياً.

والكتابة التجريبية تشبه تعثر اليد الصغيرة كلما اجتهدت في استجماع أصابعها .. وأرهقت أناملها بتصوير شكل الحروف على بياض الورقة دون تدبر كلماتها ومعنى ماتهجس به من إيقاع يصعب عليها رسمه، وعندما يستجير الحرف بحافة السطر ويرتقي سلمه درجة أخرى.

تنقذ سقوطه أن يقع في هاوية فشلها، ومايحدث معه أن لاتأذن الكتابة لحرفها أن يتوكأ على السطر فتنجو بذلك الصراط أناملها المتهدجة الوجلة عندها فقد تكون قد فهمت ماعلمتها إياه حروفها فاستطاعت أناملها أن تمسك بحبل السطر، ولم تعد تعي معه إذا أرادت أن تكتب ماتعلمه فوق ظهر الورقة وتقفز على سطورها.

وتلقي المبدع الهامة على صورة ما من التعبير يغذي الروح والمخيلة بمهارة مختلفة ويصقل قدرة الذاكرة ويمرنها على أن تتمرس، وتصبح أكثر لياقة في استعادة ذاكرتها المختزلة وتزداد قدرتها على استدعاء الهامها، ويتبين ماتفيض به ذاكرة المبدع دون غيرها وتتفرد بثروته التي يزداد غناه بها كلما سقتها المخيلة معرفة بالدنيا وتأملا فيها.

ومهارة المبدع في ترويض إلهامه أو تسخير لحظته الإبداعية وصياغتها في ظروف لم تعتدها في سابق عهدها ومفاجأتها بتأسيس متجدد ينمي حسها الأسلوب بتجديد جملها ونواحي مخيلتها ومعانيها، وتستنبط لإلهامها المتربع في اللاشعور أنماطاً من الأسئلة المتباينة التي تنطلق من حاجة الذات دائماً إلى خبرة جديدة، وهو ماتستعين به في استلهامها المغاير بقراءته العبيرية لما ألفته ثقافته في تعابيرها السابقة وهي الآن بانزياحها أو نزوجها إلى تلوين صورها بألوان لم تكتشفها الذات المبدعة بعد ولم تهتد إليها تؤكد الحياة المديدة لنتاجها الإبداعي المستمد ملامحه الجديدة من بحثه المتواصل عن مايجعل معناه نضراً بتعبير لائق يتفرد فكره به مايتبدى لمتلقيه من خلاله تلك الجرأة الابداعية ومدى إيغالها في اللاوعي واستقبال تجربته البكر ومعايشتها والاستفادة المتواصلة بها والتعلم مما فيها.

وبذلك وبما يشبه أيضاً تتحول علاقة المبدع بمركز ذاكرته أو خزينة الهامة ويصير لها أن تتلاشى، وفي مقابل ذلك يركض المبدع بإلهامه إلى نمط لايجيده أو يتمكن منه وقد يتناسى ماتتشكل منه طاقته الإبداعية، ويجنح إلى تقليد مايموج به أي إبداع وإن كان مستهلكاً، ولكن مايظل مشغولاً به وما يفعله من تقليد فكري يؤدي إلى تنميط إبداعه بنمط سواه وليس بنمطه ذاته وهو مايجعله يدرك مابدا عليه ويعي فشله وعدم تمكنه من صياغة أسلوب مختلف مغاير لنتاج فكره المشغول بمحاكاة جيله في هيئة إبداعه وتجاوز ذاته أو تجاهلها وتناسيها أو الغفلة عن جنوحها التعبيري الخاص بها مايؤدي بإبداعه إلى تراجع قد يصاب معه بالنضوب ويجف معناه إزاء ماتعانيه كلماته من جدب.

وما يطرأ لذات المبدع من تبنيها ذات سواها يجعل اللاوعي في حالة يتقصد بها أن لايتمادى في الوصول بإلهامه إلى حالة من الوعي كونه ليس مأخوذاً بالذات التي تسكنه ويتغذى من إلهامها ويختزن خبراتها ويستنير بنضج آلامها وآمالها وليس متمثلاً لانسجام عواطفها ومتبنياً لأفكارها ومشاعرها، وترابط ذلك كله وتآزره له دوره الواضح الذي يؤكد به أثره في ترسيخ التجربة الإبداعية والاستفادة بما ينتج عنها من ردود فعل مناسبة أو مغايرة لتصوراتها وما يتمثل فيها من تجربتها التي تتجسد بها صدمتها اللاشعورية والخبرة المترتبة عليها.

جدلية العلاقة بين الثقافة والسياسة

المثقف وديمقراطية العبيد للباحث الدكتور «محمد جمال طحان» واحد من الاصدارات الهامة التي عنيت بتأطير وبترجمة العلاقة بين الثقافة ومن يضطلع بمهامها ومسئولياتها، وبين السياسة ومن يقوم على شئونها في المجتمعات الإنسانية بعامة والعربية بخاصة..

يرى الدكتور «جمال» إن الكثيرين حاولوا إقامة جسور بين المثقف والسلطة، لكنها كانت جسوراً مهتزة وملغومة، وعرف السلطة بأنها قوة لتحقيق العدل والشرعية، ديكتاتورية كانت أم ديمقراطية، تقدمية، ثورية..

د.ياسر معروف

واستعرض واقع المواطن العربي اللاهث وراء لقمة العيش، هذا الواقع الصعب الذي خرج من أعطافه المثقف العربي مصدوماً بالهوة الفاصلة بين الشهادات الجامعية وتدرجاتها الصاعدة، وبين رغيف الخبز الذي يبدو عصيّ المنال.

ووسط هذه المفارقات الآلمة كان لا بد من وجود ثغرة واسعة بين التنظير والتطبيق، إن الثقافة كما ينص الباحث تبدأ من التعريفات العديدة لصانع الثقافة ومصدرها، ألا وهو المثقف الذي يلمّ بشيء من كل شيء، أو من الفطن، مقوم الأعوجاج، أو من نمت لديه الملكات العقلية أو البدنية، والثقافة نفسها تتخذ لها مسارات ومستويات عديدة تبعاً لوظائفها في المجتمع وعليه فهي إما أن تكون ثقافة متخلفة عن الواقع «ارتدادية»، أو ثقافة متطابقة مع الواقع «سكونية»، أو ثقافة متقدمة على الواقع.

وينفي الدكتور «جمال» نفياً قاطعاً أن تكون الصفة المهنية للانسان «طبيب، محام، مهندس» من مؤشرات اعتباره مثقفاً، لأن مفهوم الثقافة يتجاوز الاختصاص الواحد الى عدة اختصاصات..

فـ«سارتر» يرى المثقف بأنه «انسان يتدخل فيما لا يعنيه» أما ظاهرة عزوف الجمهور عن الثقافة التي نلمسها حالياً، فيردها المؤلف الى اللهاث خلف لقمة العيش، وضيق أفق المثقف أحياناً، أو استخدامه لغة مغرقة في التخصص الاصطلاحي..

او انشغاله في قضايا لا تمس واقع الناس، فليس كل متعلم مثقفاً، إنما كل مثقف هو بالضرورة متعلم.

إن مهمة المثقف الاساسية تتلخص في قراءة الواقع ونقده، ثم إعادة تشكيله عبر أسئلة الوجود المقلقة.

وثمة فرق بين «المثقف» بفتح القاف، وبين «المُثقِف» بكسر القاف، الذي يقصف في صفوف الجمهور المغلوب على أمره.

وفي أحسن الأحوال فإن العلاقة بين المثقف والجمهور هي علاقة مجاملة، ومهمة المثقف للارتقاء بهذه العلاقة وإكسابها المصداقية والثقة تنطلق من قنوات ثلاثة:

١- المصالحة مع الذات.

٢- المصالحة مع المثقفين الآخرين.

٣- المصالحة مع الجمهور والمثقف مطالب بتحقق الانسجام بين أقواله وأفعاله، فلا يجب أن «يعيش كما يفكر» في الخيالات والأوهام، ولا يجب أن «يفكر كما يعيش» إن من المؤلم لدينا أن يفكر.

المثقف في اتجاه، ويعيش في اتجاه آخر، والضروري اليوم أن يتكاتف المثقف مع زملائه ويقف مفنداً محاولات تفكيرهم على سبيل المثال، وعليه قبول الرأي الآخر، وقبول الاختلاف والمحاورة فيه، وإذا لم يفلح في إرساء هذه الأسس فسيعاني مثقفنا الاغتراب والانفصام والازدواجية، وسيصبح عاجزاً عن انتشال الجماهير من واقعها، والأخطر أن يغدو مفهوم الثقافة نسبياً لديه، فيكون مثقفاً في وسط الجامعة، ليس له شأن يذكر في أسرته.

ومن أهم مهام المثقف السعي الى الوضوح، ومخاطبة الجمهور بلغة وأداة توصيل يفهمها.

ويحدد الدكتور«جمال طحان» الفرق بين المثقف والسلطة بأن الأول يدافع عن المُثل القيمية، والثانية تدافع عن الواقع العيني المصلحي اليومي، فهو يجسد «الثابت» في الحياة، وهي تجسيد «المتحول»..

لذا يبدو طبيعياً أن تكون الثقافة أداة رقابة صارمة على السياسة، أما العكس فمرفوض ومن المؤسف أن السلطة في العالم الثالث تحارب المثقف والحرية ذاتها..

ويطرح الباحث في ثنايا أطروحته سؤالاً هاماً: متى يكون المثقف العربي فاعلاً بحق؟

ويجيب: حين ينعم بالحرية وتكف مصادر السلطة السياسية والاقتصادية عن محاربته في لقمة عيشه..

في الجزء الثاني من الكتاب يفرد الباحث محمد جمال طحان باباً واسعاً لاستعراض مفهوم «الديمقراطية» و«الثقافة» ومن وجهات نظر بعض المفكرين والباحثين البارزين أمثال السادة: الدكتور نعيم اليافي، والاستاذ انطون مقدسي، الدكتور علي عقلة عرسان، حيث يعرجون في سياق آرائهم وندواتهم التي تعنى بالشأن الثقافي على قضايا فكرية هامة مثل التطبيع ومعانيه السائدة، والعلاقة بين «المطبّع» ، «المتطبّع» وسبل مكافحة هذه الظاهرة التي تعكس حالة من حالات الغزو الثقافي والتبعية الحضارية للأقوى.

ولشروطه، كما نلمس من خلال الآراء «التي يقتفي أثرها الباحث بدقة ويلتقطها بمهارة» توضيحاً لسمات ثقافة المواجهة المطلوبة، والتي هي سلاحنا الأمضى في وجه التطبيع والداعين اليه، ومن هذه السمات الاهتمام باحياء التراث العربي والاحتفاء بالمعطيات الحضارية الراهنة.

وثمة مشكلة أساسية يعاني منها المثقفون في البلدان المتخلفة حضارياً، تتبدى في التناقض بين الثقافة والاعلام الذي يعتبره المثقفون التقدميون مفهوماً زئبقياً متحركاً وعليه فالثقافة تجسد ماهو استراتيجي في الفكر والمبدأ، أما الإعلام فيمثل ماهو تكتيكي مرحلي آني، قد يتناقض مع تطلعات الأمة.

ويرى الدكتور«محمد جمال طحان» أنه ليس بالضرورة اعتبار كل مثقف معارضاً، وليس هدف الثقافة المعارضة الدائمة للسلطات، لأن المثقف مسئول بشكل أو بآخر عن تنصيب السياسي في مكانه، وتكمن إحدى أسباب أزمة المثقفين العرب في التحزبات السياسية بين ماركسي، اسلامي، ليبرالي، قومي، أما الحل المطروح إزاء هذه الأزمة فيتم عبر السعي الى بناء الديمقراطية، ونقد الذات ومراجعتها، والاتفاق على المبادئ والثوابت التي تحفظ ماء وجه الأمة.

لقد قدم كتاب «المثقف وديمقراطية العبيد» مشروع «ورشة عمل» حدد من خلاله عناوين وأطر ينبغي لكل مثقف عربي أن يؤمن بها ويقتنع بجدواها في النهوض بمجتمعه الى حالة السلام والتوازن المنشودين.

ولعل خير ما ختم الباحث الدكتور محمد جمال طحان بحثه عبارة نقلها عن الاستاذ انطون مقدسي في ندوة فكرية له إذ قال:

إذا أردت أن تكون مثقفاً، فعضّ على إصبعك وناضل»..

أهمية المتلقي في النص العربي

ثابت الأحمدي

● موضوع هام وعميق وقف عنده الأقدمون من أدبائنا، لكنهم لم يعملوا فيه جهودهم أو يبسطوا أقوالهم كما فعلوا في مواضع أخرى .. حتى جاءت الدراسات النقدية الحديثة فأولت هذا الموضوع جلّ اهتمامها، بل وجعلت منه ميداناً واسعاً للباحثين وبيئة خصبة للمتخصصين، إنه «المستقبل» -بالكسر- في الأدب العربي.

هذا الموضوع يؤكد دينامية اللغة وحيويتها، كما يؤكد أهمية القارئ - المتلقي- لدى كاتب النص وليس العكس كما قد يتوهم البعض لأنه يرى أن القراءة في حد ذاتها اكتشاف، كما الكتابة قبل ذلك اكتشاف!!

ومن ثم وضع مايسمى بـ«الفجوات» في النص تعمداً من أجل ترويض الفكر وإعمال الذهن.

وماهي هذه الفجوة؟! إنها تعمد عدم إكمال المعنى بتمامه أو الفكرة بكاملها أو وضع معنى يحتمل أكثر من وجه ليكمله القارئ بنفسه من خلال قراءته إذ لو تم للنص وضوحه التام دون إعمال لفكر القارئ أو عدم وجود كر وفر أثناء القراءة لسقطت هيبة النص وخفت جماله، إذ أن سر حلاوته يكمن في غموضه، وقوته في معنى المعنى أو في ماوراء السطور، كما يذهب البعض؛ ولذا كانت القصائد الشعرية، وكانت أثبت في النفوس وأكثر وقعاً في القلوب وقرباً من الأذهان لارتباطها أو لاحتوائها على الغموض نوعاً ما على عكس مانرى في المقاطع النثرية والتي قد لاتقل عنها جمالاً من حيث وضوح المعنى وجودة السبك وقوة الصياغة.

إن القارئ مشارك -نسبياً- في صناعة النص وبطرق مختلفة، فعندما نظم شعراء الغزل قصائدهم مثلاً، هل كان المحبوب أو المتغزل فيه بعيداً عن خيال الشاعر وتفكيره، وهو ينظم فيه كلماته؟! أم أن طيفه لايفارقه أثناء الكتابة أو النظم وكذلك في المدح وغيره، ولذا كُتبت النصوص على قدر متلقيها فبشار بن برد القائل:

كأن مثار النّقْع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبه

● هو نفسه بشار القائل في ربابة:

ربابة ربة البيت
تمجّ الخلّ في الزيت
لها عشر دجاجات
وديك حسن الصوت!!

ماهذا التنازل كله؟ وما هذا الانفصام؟ إن بشاراً يعرف أن الأول لاصلح لربابة فاتى لها بما يصلح لها، أليس كذلك؟!!

وفي القرآن الكريم وجدنا هذه الفجوات كدليل على أهمية القارئ لدى النص القرآني في كثير من الأساليب القرآنية: «ولو أن قرآناً سُيرت به الجبال أو قُطّعت به الأرض أو كُلّم به الموتى...» .. أين جوابه؟!

طبعاً غير موجود إنما مقدر بحدس القارئ وبفهمه: «كلا لو تعلمون اليقين» .. وما الصور التمثيلية والمجاز بضروبه إلا من هذا القبيل، ولهذا جاء الشكلانيون في النظريات الحديثة الذين أكسبوا النص حيويته المتجددة، وإلا لمات النص بموت مؤلفه، والمقصود بالنص هنا النص الأدبي الذي يعتمد في تراكيبه وصيغه على المجاز في الاستخدام الأمر الذي يجعل من التأويل صنواً للقراءة الدقيقة وللمعاني المتخفية وراء النص عن طريق التأويل.